﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: 41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ارْتَبَطَتِ الآيَةُ بما سَبَقَها في أَنَّها عَلَّمَتِ النَّبيَّ ﷺ بماذا يُجيبُهُم عِنْدَ تَكْذيبِهِم

يقولُ صاحبُ تفسيرِ المنارِ: "لَمّا أَنْبَأَ اللهُ رَسولَه بأنَّ مِن قَومِه مَن لا يؤمِنُ بهذا القُرآنِ حالًا ولا استِقبالًا، إذ لا ينفَعُهم البيانُ مهْما يكُنْ ناصِعًا، ولا ينفَعُهم البُرهانُ وإنْ كان قاطِعًا، وأنَّ الَّذي علَيه في المُصِرّينَ على تكذيبِه منهُم بَعدما جاءَهم به مِن الآياتِ الَّتي دمَغَتْهم بالحُجَجِ البَيِّناتِ، أنْ يَتبَرَّأَ منهم، وينتظِرَ أمرَ اللهِ فيهم - كان مِن شأنِ هذا النَّبأِ أنْ يُثيرَ عجَبَه؛ لغَرابتِه في نفسِه، وأنْ يَسوءَه؛ لما يشيرُ إليهِ مِن انتقامِ اللهِ منهم، بَيَّنَ له مَثَلَ الَّذين فقَدوا الاستعدادَ للإيمانِ، وعَلَّمَه ما لَم يكُن يَعلَمُه مِن سُنَّةِ اللهِ تعالى فيهم، وكَونِ مُصيبتِهم مِن أنفسِهم، فلا حولَ له ولا قوَّةَ على هدايتِهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَرِيٓـُٔونَ﴾: "أصلُ البُرءِ والبراءِ والتّبرّي: التّفصّي ممّا يُكرهُ مجاورتُه، ولذلك قيل: برأتُ مِن المرضِ وبرِئتُ مِن فلانٍ وتبرّأتُ، وأبرأتُهُ من كذا وبرّأتُهُ، ورجلٌ بريءٌ، وقومٌ بُرآء وبريئون"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَسْريَةٌ وتَسْليَةٌ لِلنَّبيِّ ﷺ ووَعيدٌ وتَهْديدٌ للمُكَذِّبينَ

هذهِ آيَةُ مُناجَزَةٍ للمُشْركين ومُتارَكَةٍ لَهم، وفيها وفي الَّتي بَعْدها تَسْليَةٌ للرَّسولِ ﷺ وتَسْريَةٌ عنه لتكذيبِ قومِه لهُ، وإعراضِهم عن دعوتِه، وفي ضِمنِها وعيدٌ وتَهْديدٌ. ومَدْلولُ هذه الآيَةِ اخْتِصاصُ كُلِّ واحِدٍ بأفْعالِهِ وبثَمَراتِ أفْعالِهِ مِنَ الثَّوابِ والعِقابِ، ومعناها: وإنْ

(1) رشيد رضا، تفسير المَنار: 11/280.
(2) الرّاغب، المفردات: (برأ).

أصَرَّ قومُك على تكذيبِك فقلْ لَهُم: لي جزاءُ عَمَلي، ولَكُم جزاءُ عَمَلِكم حَقًّا كان أم باطِلًا، ولا يُؤاخَذُ أحَدٌ بذَنْب الآخَرِ، فكُلٌّ واحدٍ مُرْتَهنٌ بعملِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَعْنى الواوِ في: ﴿وَإِن﴾:

الواوُ عاطفَةٌ، عطَفَتْ ما تَلاها مِن توْجيهاتٍ على ما تقدَّمَها مِن وَصفِ حالِهم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بأَداةِ الشَّرْطِ: (إنْ):

عَـدَمُ الاعْـتِـدادِ بـتـكْـذيـبِ المُشْرِكينَ

الواوُ في قولِه: ﴿وَإِن﴾ عاطفَةٌ، والتَّعبيرُ بأداةِ الشَّرطِ المفيدةِ تقليلَ حصولِ مدخولِها (إنْ) في قوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل﴾ لاستبعادِ وقوعِ التَّكذيبِ منهم بعد ظهورِ الأدلَّةِ القاطِعَةِ على صِدْقِه ﷺ واعتبارِ هذا التَّكذيبِ كَأَنْ لَم يقعْ، وعَدمِ الاعْتدادِ بهِ، وفي هذا تثْبيتٌ لهُ ﷺ.

عِلَّةُ التَّعْبيرِ بفِعْلِ الشَّرْطِ ماضيًا: ﴿كَذَّبُوكَ﴾:

دلالَةُ القَوْلِ عَلى جَوابِ الشَّرْطِ

التَّعبيرُ بفعلِ الشَّرطِ ماضيًا: ﴿كَذَّبُوكَ﴾ يدلُّ على مُسارَعةِ القومِ إلى تكذيبِه ﷺ وإصرارِهم عَليه، ويدلُّ على تحقُّقِ هذا التَّكْذيبِ. ومَرْجِعُ الضَّمير (واوِ الجماعةِ) يعودُ على المُشْرِكينَ، وضميرُ الخِطابِ يعودُ على الرَّسول ﷺ والتَّقديرُ: وإنْ بَقيَ المُشْرِكونَ على تكذيبِك، وأصَرّوا عليه، ويَئِسْتَ مِن إذعانِهم لدَعوتِك فَقُلْ لي، فاكْتُفيَ به ﴿فَقُل لِّي﴾ للدّلالةِ على جوابِ الشَّرْطِ، وفي وقوعِ المفعولِ بهِ ضميرَ خِطابٍ إشارةٌ إلى تَرَصُّدِ المُشْرِكينَ بالرّسولِ ﷺ وتعمُّدِهم توْجيهَ التَّكذيبِ إلى شَخْصِهِ هو، وكأنَّه هدفٌ لتَكْذيبِهم لا يَرَوْنَ غيرَه.

مَعْنى الفاءِ في: ﴿فَقُل﴾:

الفاءُ واقعةٌ في جوابِ الشّرْطِ، وهي تقعُ في جوابِ شرطٍ لا يصلحُ أن يكونَ جوابًا للشّرطِ، وإنّما يكونُ الجوابُ محذوفًا وهي عاطِفةٌ عليه، والتَّقديرُ هنا: وإنْ كذّبوك وآذَوك وافترَوْا عَلَيك، فقُلْ لَهم: لي عمَلي.

نُكْتةُ التَّعْبيرِ باللّامِ في: ﴿لِّي﴾ ، ﴿وَلَكُمْ﴾:

المَقصودُ بقولِه: ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ﴾ جزاءُ العملِ، فكُلٌّ بعَمله مُرْتَهنٌ ومُحاسَبٌ حَقًّا كان أم باطِلًا، وهذا ما أظْهَرَتْهُ المُقابَلَةُ بَيْن الجزاءَيْن. وهذا التَّعبيرُ فيه غايةُ الإنْصافِ لإسْكاتِ الخَصْمِ المُشاغِبِ؛ لذا أوثرَ استخدامُ اللّامِ الدّالَّةِ على النَّفْعِ في الطَّرَفَيْن: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ﴾، حيثُ لم يُقَلْ: لي عَملي، وعَليكم عمَلُكم، باستخدامِ حرفِ الاستعلاءِ الدّالِّ على المضارَّةِ، وهذا أدْخَلُ في إمحاضِ النُّصْحِ، وهذا التَّوجيهُ أوْلى مِن حَملِ اللّامِ في: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ﴾ على المُشاكَلَة[1].

إنْصافُ الخَصْمِ، وإخْلاصُ النَّصيحَةِ

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الخَبَرِ عَلى المُبْتَدَأِ: ﴿لِّي﴾ ، ﴿وَلَكُمْ﴾:

أفادَ تقديمُ الخبَرِ على المُبتدأ، والإضافةُ إلى الضَّميرِ في قولِه: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ﴾ القصْرَ، والمعنى: لي جزاءُ عملي وهو البلاغُ المُبينُ، والإنذارُ والتَّبشيرُ، وما يستلزمُه مِن العبادةِ والإصلاحِ لا يَتعدّاني إليكُم، ولَكُم مَغَبَّةُ عَملِكم بمُقْتضى تَكذيبِكم وشِرْكِكم، وهو الظّلمُ والفسادُ، الَّذي تُجْزَوْن بِه يومَ الحِسابِ لا تَتعدّاكم إليَّ، وقُدِّم ﴿لِّي عَمَلِي﴾ على ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ﴾؛ لأنَّهُ آكَدُ في التَّبَرُّؤِ منهُم، والمُباعَدةِ عنهُم.

كُلٌّ سَيَجْني جَزاءَ عَمَلِهِ، خَيْرًا كانَ أَم شَرًّا

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُسْنَدِ إلَيهِ مَصْدَرًا:

في التَّعبيرِ بالمُسْنَدِ إليه مَصْدرًا ﴿عَمَلِي﴾ و ﴿عَمَلُكُمْۖ﴾ إشارةٌ

(1) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/471.

كُلٌّ مَسؤولٌ عَنْ عَمَلِهِ

إلى جزاءِ العملِ. ومعنى ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾: المُتارَكَةُ والمُباعَدَةُ. وهو مِمّا أُجْرِيَ مجْرى المَثَلِ، ولِذلِكَ بُنِيَ على الإيجازِ ووَفْرَةِ المعنى، فأُفيدَ فيه القَصْرُ، بتَقْديمِ المَعْمولِ وبالتَّعْبيرِ بالإضافَةِ إلى الضَّميرِ في ﴿عَمَلِي﴾ و﴿عَمَلُكُمْ﴾، وخولِف فيهِ ما بَعْدَه، حيثُ عُبِّرَ في هذه الجملةِ بالمَصدرِ؛ للعِلَّةِ المذكورةِ، وعُدِل عن ذلك إلى التَّعبيرِ بالفعلِ في قولِه: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كما سَيَأْتي بيانُه[1].

نُكْتَةُ فَصْلِ: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ﴾ ودلالَتُهُ:

التَّسْريَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ والتَّخْفيفُ عَنْهُ

جاءَتْ جُملةُ: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾ بيانًا لجملةِ: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾؛ لذا فُصِلَتْ، "وهي أيضًا تأكيدٌ لما أفادَتْه لامُ الاختصاصِ مِن عدَمِ تَعَدّي جَزاءِ العمَلِ إلى غيرِ عامِلِه"[2]. وهذا التَّرْكيبُ "لا يُرادُ بِهِ صَريحُهُ، وإنَّما يُرادُ بِهِ الكِنايَةُ عنِ المُباعَدَةِ، وقد جاءَ هذا المُكَنَّى بِهِ مُصَرَّحًا بِهِ في قولِه تَعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشُّعراء: 216]."[3] والأمر بالتَّبَرُّؤِ من المُشْرِكين، مع أنَّ الرَّسولَ ﷺ مَبْعوثٌ بالدَّعوةِ والإرشادِ إلى الحقِّ، إنَّما يَصِحُّ ويكونُ بعد إلزامِ الحُجَّةِ، واليَأْسِ مِن إجابتِهم[4].

سِرُّ تَقْديمِ بَراءَتِهِم: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ﴾:

إِنْصافُ الخَصْمِ سيرَةُ أَهْلِ الحَقِّ ودَيْدَنُهُم

قُدِّمَتْ براءَتُهم على براءتِه ﷺ ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ "لأنَّ هذه الجُملةَ جاءَتْ كالتَّوْكيدِ والتَّتْميمِ لما قَبْلَها، فناسَبَ أنْ تَلِيَ قولَه: ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾. ولِمُراعاةِ الفَواصِلِ، إذْ لو تَقَدَّمَ ذِكْرُ بَراءَةٍ كَما تَقَدَّمَ ذِكْرُ ﴿لِّي عَمَلِي﴾ لَم تَقَعِ الجُملَةُ فاصِلَةً، إذْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/176.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/668.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/176.
(4) القونويُّ، حاشية على البيضاويِّ: 9/471.

كانَ يَكونُ التَّرْكيبُ: وأنْتُم بَريئونَ مِمّا أعْمَلُ[1]، وفي هذا تأكيدٌ للقَصْر المُسْتَفادِ مِن تقديمِ الخبرِ على المبتدأ، وفيه إنْصافٌ للخَصم، حيثُ أثْبَتَ البراءةَ عن عملِه لَهُم أوَّلًا مع أنَّ بيانَ ثُبوتِ جزاءِ العملِ لهُ ﷺ لا لغَيْرِه قُدِّم على بيانِ ثبوتِ جزاءِ عملِهم لهُم لا لغَيْرِهم[2].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالجُملَةِ الاسْميَّةِ:

ثَباتُ الحُكْمِ ودَوامُهُ

أوثرَ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسْميَّةِ في قولِه: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ﴾ و﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ﴾؛ للدّلالةِ على ثباتِ الحُكْمِ ودوامِه. والمعنى: لا تُؤاخَذونَ بعَمَلي، ولا أُؤاخَذُ بعَمَلِكم، ووُرودُها بالجملةِ الاسْميَّةِ لبيانِ أنَّها قاعدةٌ ثابتةٌ، فكلُّ واحدٍ يلحقُه أثرُ عملِه، ولا يتحمَّلُ واحدٌ عن واحدٍ شيئًا، والتَّعبيرُ بالاسْميَّةِ هنا هو الألْصَقُ بخِطابِ الإنْصافِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَجْرورِ اسْمًا مَوْصولًا:

إصْرارُ الرَّسولِ ﷺ عَلى إبْلاغِ دَعْوَتِهِ

عُبِّرَ بالمجرورِ اسمًا موصولًا في الجملتين: ﴿مِمَّآ أَعْمَلُ﴾ و﴿مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ لبيانِ البراءةِ مِن خلالِ جملةِ الصِّلةِ الَّتي وقعتْ جملةً فعليَّةً، وقد جاء اسمُ الموصولِ بـ (ما) لأنَّها أعمُّ الموصولاتِ وأدخلُها في الإبهامِ، وهو الألْصَقُ بغرضِ العبارةِ الكريمةِ.

لَطيفَةُ إيثارِ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ:

البراءةُ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ يَحْدُثُ في الحالِ والاسْتِقْبالِ

في التَّعْبيرِ بالمُضارعِ في الطَّرَفَيْنِ فِعْلًا: ﴿أَعْمَلُ﴾ و﴿تَعْمَلُونَ﴾؛ إشارةٌ إلى عمومِ العملِ، واستمرارِه، وإلْماحٌ إلى إصرارِ الرَّسولِ الكريمِ ﷺ على تَأْديَةِ رسالتِه، وإصرارِ المُشْرِكين على تكذيبِه ﷺ وقد أوثرَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ في الطَّرَفَيْنِ صِلَةً لـ (ما) المَوْصولَةِ في ﴿أَعْمَلُ﴾ و﴿تَعْمَلُونَ﴾ على التَّعبيرِ بالمصدرِ كالجملةِ السّابقةِ في قولِه: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾؛ "لِلدّلالَةِ على البَراءَةِ مِن كُلِّ عمَلٍ يَحْدُثُ في الحالِ والاسْتِقْبالِ، وأمّا العَمَلُ الماضي فلِكَوْنِهِ قَدِ

(1) أبو حَيّان، البحر المحيط: 2/62.

(2) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/471.

انْقَضى لا يَتَعَلَّقُ الغَرَضُ بذِكْرِ البَراءَةِ مِنهُ. ولو عُبِّرَ بالعَمَلِ لَرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ المُرادَ عمَلٌ خاصٌّ؛ لأنَّ المَصْدَرَ المُضافَ لا يَعُمُّ، ولِتَجَنُّبِ إعادَةِ اللَّفْظِ بعَيْنِهِ في الكَلامِ الواحِدِ؛ لأنَّ جُملَةَ البَيانِ مِن تَمامِ المُبَيَّنِ، ولأنَّ هذا اللَّفْظَ أنْسَبُ بسَلاسَةِ النَّظْمِ؛ لأنَّ في (ما) في قوله: ﴿مِمَّآ أَعْمَلُ﴾ مِنَ المَدِّ ما يَجْعَلُهُ أسْعَدَ بمَدِّ النَّفَسِ في آخِرِ الآيَةِ والتَّهْيِئَةِ للْوَقْفِ على قوله: ﴿مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ولِما في ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ المَدِّ أيضًا، ولأنَّهُ يُراعي الفاصِلَةَ"[1].

الغَرَضُ مِنْ حَذْفِ المَفْعولِ بِهِ:

البَراءَةِ تَشْمَلُ كُلَّ عَمَلٍ بغَضِّ النَّظَرِ عَمّا وَقَعَ عَلَيْهِ العَمَلُ

أشارَ حذفُ المفعولِ به في: ﴿أَعْمَلُ﴾ و﴿تَعْمَلُونَ﴾ إلى عُمومِ العملِ، فحُذِفَ المفعولُ به هُنا لتوفيرِ العنايةِ على الفعلِ والفاعلِ بغَضِّ النَّظَرِ عمّا يقعُ عليهِ الفعلُ، وهذا العمومُ أنْسَبُ بالمَقامِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(تَعْمَلون) و(تَفْعَلون):

الفِعْلُ لا يَمتَدُّ زَمانُهُ بخِلافِ العَمَلِ، ويَقَعُ بقَصْدٍ وبدونِ قَصْدٍ

الفعلُ لفظٌ عامٌّ، وهو عبارةٌ عن إيجادِ الأثرِ في الشَّيْءِ مِن غيرِ انْقطاعٍ ولا بُطْءٍ، سواءٌ كان عن سببٍ، أو لا. ويُقال لما كان بإجادَةٍ وبدونِها، ولِما كان بعِلمٍ أو غيرِ علمٍ، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ولِما كان مِن الإنسانِ والحيوانِ والجمادِ. أمّا العملُ فهو عبارةٌ عن إيجادِ الأثرِ في الشَّيْءِ مع امتدادِ زمانٍ وتراخيه. ولا يُقالُ إلّا لِما كان مِن عاقلٍ ولِما كان بقصدٍ وعِلمٍ دونَ ما لَم يكنْ عن قصدٍ وعلمٍ. يُقال: فلانٌ يَعْمَلُ الطّينَ خزَفًا، ويَعْمَلُ الأديمَ سِقاءً. ولا يُقال: يفعلُ ذلك؛ لأنَّ فِعْلَ ذلك الشَّيْءِ هو إيجادُه مِن غيرِ بُطْءٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/176.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»